

معاني الكلام واللسان في الدرس اللغوي

Meanings of speech and tongue in language lecturer

د. قسول ثابت*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/01/26 تاريخ القبول: 2018/04/01 تاريخ النشر: 2019/01/16

ملخص:

من الصعوبة بمكان، إعطاء صورة دقيقة للدراسات اللغوية الخاصة باللغة العربية، لأنّ هذا النوع من الدراسات يواجه بعض المعوقات. وفي المقابل، تعيش الدراسات اللغوية في الفكر الغربي تطوراً ملحوظاً، على هذا الأساس، تركز دراستنا على التمييز بين الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة والدراسات اللغوية لدى العرب خلال الفترة الوسيطة، لذا، سنحاول في هذا المقال عرض إسهامات "ابن الجني" في الدرس اللغوي من خلال كتاب "الخصائص".

الكلمات المفتاحية: السانيات؛ اللسان؛ الكلام؛ اللغة؛ الفكر العربي

Abstract : It is difficult to give an accurate picture of the situation regarding the linguistic study of Arabic language, because this kind of study is facing some obstacles. On the other hand, the Linguistic study in Western thought lives a remarkable development. Therefore, this paper focuses on the problem of the distinguish between two areas. Especially in this article, we will show Ibn Jinni's contributions to Arabic linguistics by surveying his thinking in his studies, such as "al-Hasa'is

Keywords : Linguistics – Tongue (Langue)- Speech – Language - Arabic Thought

مقدمة:

من بين ما تميّز به اللغة في سائر الأمم، تاريخها، فأما اللغة العربية كما يراها المفكر العربي "العقاد"، فقد بدأت تاريخها المعروف بخصائصها المميزة لها اليوم في عصر سابق للدعوة الإسلامية، يرده علماء علم اللغة المقارن إلى القرن الرابع قبل الهجرة، حيث حدّدت لها مزايا متعددة، كلما تقدمت الدراسات في العلوم اللسانية والصوتية، وقد فرقت الدراسات الحديثة بين المزايا التي يتغنى بها أصحاب العصبية القومية فخرا بألسنتهم وطبائعهم وعقولهم على جميع الأقوام، وبين المزايا العلمية التي تستند إلى خصائص النطق والتعبير المتفق عليها في العلوم اللسانية، ولا محاباة فيها لهذه اللغة أو تلك على حسب علاقتها الجنسية أو الدينية¹.

إن اللغة العربية حين تحلل تحليلًا فلسفيًا تُوجه ضربة قاسمة للمذهب القائل: بأن العقل عاجز عن الإحاطة بالواقع، ولسوف يثبت هذا التحليل أن اللفظة غالباً ما تكون مفهوماً من المفاهيم. فليس صدفة أن يقوم العقل العربي بإطلاق لفظ "الترف" على لين العيش، إن الترف ضعف، وليس أدل على

*الباحث المرسل: kassoul.tabet@gmail.com / مختبر الأبعاد القمية بجامعة وهران2

¹- العقاد عباس محمود، اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، مطبعة الاستقلال الكبرى بد: ط ص: 04

ذلك من وجود الفاء في آخر هذه اللفظة، وأكثر أحوال الفاء أنها للوهن والضعف ونحوهما على حد قول ابن جني¹.

مما لا شك فيه أن التاريخ اللغوي للمصطلح في اللغة العربية أمر ليس بالهين، ولا تتضح الصعوبات إلا عندما نتوجه صوب الممارسة العملية للتتبع حياة لفظ أو مصطلح عبر العصور.

لقد مرّ لفظ الكلام في تراث العربية من شكله الأول منذ أقدم النصوص التي تبدى فيها اللفظ في التراث اللغوي، ثم اتخذ بعدا فكريا جديدا في بوتقة التنظير العلمي لصياغة المصطلح المناسب في مسيرة الفكر اللغوي في العربية، وفهم ظاهرة الكلام البشري لم تأخذ بعد حقها من الدراسة والاهتمام إلا في حالات نادرة، يحتاج إلى متابعة ومواصفة لهذا النوع من التفكير اللغوي العربي².

إن مدار البحث في علوم اللسان هو الكلمة التي عليها العمدة في التخاطب، وعليه تستخدم عبارتي الكلام واللغة بمعنى متقارب، وبه تتحوّل مفردات العالم إلى علامات تفضي إلى جعل الكون كله لغة. ومن هنا رأينا لزاما على أنفسنا أن نذكر بعض المصطلحات المتداولة وخاصة منها الكلام.

1- معاني الكلام وخصائصه لدى اللغويين العرب: -الكلام من الناحية النفسية:

وإذا عدنا بتعبير ابن الجني إلى الاشتقاق الأكبر، وجدناه أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ. فالكلمة بحسب تقاليمها الممكنة الستة تفيد القوة والشدة، خمسة منها معتبرة وواحد ضائع، فالأول: "ك.ل.م" ومنه الكلام لأنه يقرع السمع ويؤثر فيه، وأيضا يؤثر في الذهن بواسطة المعنى، ومنه اللكم للجرح وفيه شدة، والكلام ما غلظ من الأرض وذلك لشدته، والثاني: "ل.م.ك" «لأن الكامل أقوى من الناقص، والثالث: "ل.ك.م" ومعنى الشدة في اللكم، والرابع: "م.ك.ل" «بئر مكول إذا قل ماؤها، والخامس: "م.ل.ك" يقال ملكت العجين إذا أمعنت عجنه فاشتد وقوى³.

وقد يستعمل لفظ الكلمة في اللفظة الواحدة، ويراد بها الكلام الكثير الذي قد ارتبط ببعضه ببعض كتسمية القصيدة بأكملها بكلمة، ومنها يقال كلمة الشهادة ويقال الكلمة، ويقصد يقصد بالكلمة ما يقصد بالكلام من اللفظ الدال على معنى بحسب السكوت عليه كقوله-صلى الله عليه وسلم-«أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة ليبد".

والاستشهاد به على أن الكلمة قد يقصد بها الكلام وهي قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل *** وكل نعيم لا محالة زائل.

¹ ابن جني أبي الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي البخار، دار الهدى للطباعة والنشر، ج: 1، بط ص: 28

² د. السيد الشرفاوي، الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1، 2006، ص: 13

³ فخر الدين محمد الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، ج: 1، ط: 3، 1985، ص: 22

والكلمة الطيبة صدقة، ولما كان المجاز أقوى من الاشتراك، علمنا أن إطلاق لفظ الكلمة على المركب مجاز، وذلك لوجهين. الأول: إن المركب إنما يتركب من المفردات، فأطلق لفظ كلمة على الكلام المركب يكون إطلاقاً لاسم الجزء على الكل، والثاني: أن الكلام الكثير إذا ارتبط ببعضه ببعض حملت له وحدة فصار شبيهه بالمفرد، فأطلق على الكلم الطويل لهذا السبب¹.

والكلام هو اللفظ المفيد، كما جاء في قول ابن مالك الأندلسي:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم *** واسم وفعل وحرف الكلم

أي كل لفظ دال على معنى يحسن السكوت عليه، وهو ما أراده بقوله مفيد كاستقم، كأنه قال: الكلام لفظ مفيد فائدة تامة يصح الاكتفاء بها كالفائدة في استقم، فاكتفى على تتميم الحد بالتمثيل.

ولابد للكلام من طرفين: مسند ومسند إليه، ولا يكون إلا اسمين، نحو: زيد قائم، أو اسما نحو قام زيد، ومنه "استقم" فإنه مركب من فعل أمر وفاعل هو ضمير المخاطب تقديره: استقم أنت. وقوله: اسم وفعل وحرف الكلم.

والكلمة على ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف، لأن الكلمة لفظ بالقوة، أو لفظ بالفعل، دال بجملته على معنى مفرد بالوضع.²

وبعبارة أخرى، كل منطوق أفاد بالوضع فهو كلمة، وجمعها كلماتي، وكلم كل ما يحصل في النفس من حيث يدل عليه بعبارة أو إشارة أو كناية فهو كلام النفس سواء كان علماً أو إرادة أو استخباراً أو غير ذلك.

والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات، والكلمة: اللفظة أو القصيدة أو الخطبة. وكلمته تكليماً، وتكالماً الرجلان-إذا تحدثا بعدما تهاجرا-ويقال الرجلان لا يتكلمان، وكليمك الذي يكالمك، ورجل كلماتي أي الكلام³.

وقيل أنه أصوات متتابع لمعنى مفهوم، وقيل يطلق على المفيد وغير المفيد، وقيل هو المعنى القائم في النفس لأنه يقال: في نفسي كلام، واسم جنس يقع على القليل وعلى الكثير، أو بعبارة أخرى كل منطوق أفاد شيء بالوضع هو كلمة، وجمعها كلمات، أو كل ما يدل عليه بعبارة أو كتابة أو إشارة سواء كان علماً أو إرادة أو جبراً أو استخباراً أو غير ذلك.⁴ ويرى (ابن هشام الأنصاري) أن معنى الكلام في اللغة يطلق على ثلاث أمور: أحدهما: الحدث الذي هو التكليم، نقول: أعجبتني كلامك زيد، أي تكليمك إياه وإذا استعمل بهذا المعنى عمل الأفعال كما في هذا المثال:

¹- المرجع نفسه، ص: 23

²- ابن الناطم، شرح ألفية بن مالك، حققه عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت بد: ط، 1998، ص: 20.

³- المصدر نفسه، ص: 32

⁴- ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، المكتبة العصرية صيدا بيروت بط، ص: 96.

قلت: كلامك هند وهي مصغية *** بشفيك؟ قلت صحيح ذلك لو كانا والثاني: ما يعبر عنه باللفظ المفيد، وذلك كأن يقوم بنفسك معنى فيسمى ذلك الذي تخيلته كلاما كما جاء في قول الأخطل:

لا يعجبك من خطيب خطبة *** حتى يكون مع الكلام أصيلا

إنما الكلام لفي الفؤاد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والثالث: ما تحصل به الفائدة سواء كان خطأ أو لفظاً أو إشارة، أو ما نطلق به لسان الحال كما جاء في قول العرب: "القلم أحد اللسانين"، وتسميتهم ما بين دفعتي المصحف: "كلام الله"، والدليل عليه في الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَيُّنَاكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ سورة آل عمران، من الآية 41، فاستثنى الرمز من الكلام، كما في قول (عمر بن أبي ربيعة المخزومي):

أشارت بطرف العين خيفة أهلها *** إشارة مخزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال: مرحبا *** وأهلا وسهلا بالحبیب المتیم¹

والكلام في حد ذاته يتحدد بداهة بأنه حروف منظومة، وأصوات متقطعة، ومرد ذلك أن مادة الكلمة هي الحروف، والحروف أصوات متقطعة على وجه مخصوص، وهو ما يقود إلى التحديد الاستقرائي المتصاعد من الجزء إلى الكل، لأن الحروف أصوات مفردة، إذا ألغيت صارت ألفاظا، والألفاظ إذا ضمنت صارت أسماء، والأسماء إذا تتابعت صارت كلاما، والكلام إذا ألصق صار أقاويل فتتكامل على هذا النمط مهجة الخطاب².

وقد عالج (بن حني) في "الخصائص" الفصل بين الكلام والقول: فالقول بحسب له، يدل على الحركة والخفة، فالأول: (ق.و.ل) فمنه القول لأن ذلك أمر سهل على اللسان لأن الفم واللسان يخفان له. وهو بضد السكوت الذي هو داعية إلى السكون، والقول هو الكلام على الترتيب، أي كل لفظ قال به اللسان، تاما كان أو ناقصا، وقال به حكم واعتقد واعترف وغلب، وقال عنه: روى، وقال له: خاطبه، وقال عليه: افترى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، من الآية 169. وقال فيه: اجتهد، وقال بيده: أهوى بها، وقال برأسه: أشار، ويعني ما وأقبل كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ سورة يس، من الآية 7، وقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ سورة مريم، من الآية 34.

والقول قد يكون ذما وإبعادا كقوله تعالى لإبليس: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا﴾ سورة الأعراف، من الآية 18.³

¹ المصدر نفسه، ص: 98

² رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، دار بيروت للطباعة والنشر، 1958، ج: 1، ص: 400.

³ المصدر نفسه، ص: 402.

والتكلم لا يكون إلا ثناء وفضيلة كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ سورة النساء، من الآية 164، ويقال كلم الله إبليس، ولا هو كلم الله، ولا أن الله تعالى كلم أهل النار.

وأما القول فأصله أنه كل لفظ من لسان تاما كان أو ناقصا، فالتام هو المفيد أعني: الجملة وما كان في معناها، والناقص ما كان بضد ذلك، فكل كلام قول، وليس كل قول كلام.¹

والقول والقييل واحد: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ سورة النساء، من الآية 122. والقول يشغل عل أوجه، أظهرها أن يكون للمركب من الحروف المبرز بالنطق مفردا كان أو جملة، فالمفرد كقولك: "زيد" و"خرج" والمركب: "أحدهما".² وقد نسي القصيدة أو الخطبة قولاً، ويقال للمتصور في النفس قبل الإقرار باللفظ "قول"، فيقال: "في نفسي قول لم أظهره"، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ سورة المجادلة، من الآية 08. فجعل ما في اعتقادهم قولاً. ويقال كذلك للاعتقاد نحو فلان يقول بقول أبي حذيفة، ويقال للدلالة على الشيء، كما يقال للعناية الصادقة، كما يستعمله المنطقيون دون غيرهم في معنى الحد، فيقولون قول الجوهر كذا، وقول العرض كذا أي أحدهما.³

والفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله، ولا يقال: القرآن قول الله. وذلك أن هذا موضع ضيق لا يمكن تحريفه ولا يصوغ تبديل شيء من حروفه، فعبر لذلك عنه بالكلام الذي هو أصوات تامة مفيدة.⁴

وقال (سيبويه): "واعلم إن قلت في كلام العرب، إنما وقعت على أن يحكي به، وإنما يحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً".⁵

وإن الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها. وأن القول لا يستحق هذه لصفة من حيث كانت الكلمة الواحدة قولاً، وإن لم تكن كلاماً. ومن حيث كان الاعتقاد والرأي قولاً وإن لم يكن كلاماً، فعلى هذا يكون قولنا: "قام زيد كلاماً فإن قلت شارطاً: إن قام زيد، فإن زدت عليه (إن) رجع بالزيادة إلى النقصان فصار قولاً لا كلاماً".⁶

ولفظ القول يصح جعله مجازاً، إلا ترى أنك لو سألت رجلاً عن صحة رؤية الله تعالى فقال: لا يجوز رؤيته، فتقول: هذا قول المعتزلة، ولا نقول: هذا كلام المعتزلة، لأن الاعتقاد لا يفهم إلا بغيره، فلما حملت لمشابهة من هذا الوجه حصل سبب جعله مجازاً عنه،⁷ هذا ونجد أن المعنى النفساني يسعى بالكلام

¹ ابن جني أبي الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي البخار، دار الهدى للطباعة والنشر، ج: 1، بط، ص: 17.

² المصدر نفسه، ص: 19.

³ مدح عاطف الزين، مجمع البيان الحديث، تفسير مفردات القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بط، ص: 722.

⁴ المرجع نفسه، ص: 19.

⁵ المرجع نفسه، ص: 20.

⁶ المرجع نفسه، ص: 21.

⁷ الرازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، مجلد: 1، ط: 1985، 3، ص: 27.

والقول، والحجة على ذلك موجودة في القرآن والأثر والشعر: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ سورة المنافقون، من الآية 1، وظاهر أنهم ما كانوا كاذبين في اللفظ لأنهم أخبروا أن محمداً رسول الله وكانوا صادقين فيه، فوجب أن يقال أنهم كانوا كاذبين في القول اللساني. وجاء في الأثر أن عمر قال يوم السقيفة: "كنت قد زرت في نفسي كلاماً فسبقتني إليه أبو بكر"، وأما الشعر فقول الأخطل: "إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً"¹.

-الكلام من الناحية الكلامية:

هذا مفهوم الكلام من الناحية النفسية، أما مفهومه من الناحية الكلامية، فعند أهل الكلام، فهو ما يضاد السكوت سواء كان مركباً أو لا، مفيد فائدة تامة. فمعنى قوله تعالى متكلماً على طريقة أهل اللغة، أنه محل الكلام، لا أنه يوجد كما يزعمه المعتزلة، على قاعدة اللغة في المشتقات كالمتحرك، ومن هنا ينتظم برهان على إثبات الكلام النفسي ولا اختلاف بين الأشعرية والماتريدية في أنه تعالى متكلم بكلام نفسي هو صفة له تبارك وتعالى قائمة به، وإنما الاختلاف في أنه تعالى متكلم لم يزل متكلماً.

فعند أكثر متكلمي الحنفية إسماع المعنى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ سورة طه، من الآية 12. روى أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلم؟ فقال الله عز وجل: إني أنا ربك وأن إبليس وسوس إليك فقال: لعلك تسمع كلام الشيطان فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمع من جميع جهاتي ألت أسمع به بجميع أعضائي.²

وعند الأشاعرة أن المتكلمية والمكلمية مأخوذان من الكلام، لكن باعتبارين مختلفين، فالمتكلمية باعتبار قيامها بذات الباري وكونها صفة له وهذا محل وفاق والمكلمية باعتبار تعلقها أزلاً بالمكلف. وحقيقة الكلام في رأي المعتزلة أنه حروف منظومة وأصوات مقطعة، وهو مجرد اصطلاح، ولا يكون إلا باللسان، وعليه هو جسم وعرض، وكل جسم محدث، وكل عرض محدث أيضاً، والقرآن كلام الله، فهو جسم وعرض. وهو بالتالي مخلوق ومحدث، وهذا الكلام المحدث ليس قائماً به تعالى بل هو خارج عن ذاته، فالقرآن كلام الله، والكلام صفة من صفاته.³

فالقرآن مخلوق في مذهب المعتزلة، وأزلي في عقيدة السلف، ووقفت الأشعرية موقف اعتدال وميزت بين الكلام المسموع، والكلام المنقول في القرآن، وبين المعاني التي يتضمنها هذا الكلام.

فالقرآن في نظرهم من حيث هو ألفاظ ينطق بها، وتنقل وتسمع، محدث ومخلوق. غير أن هذه الكلمات هي القرآن عن طريق الرمز، أما كلام الله على الوجه الصحيح فحديث نفسي ليس بحرف ولا صوت

¹ المصدر نفسه، ص: 28.

² أبي البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكوفي، الكليات، مؤسسة الرسالة، ط: 2، 1993، ص: 758.

³ مدح عاطف الزين، المرجع السابق، ص: 724.

وحديثه هذا واحد لا يتغير مهما تغيرت الاعتبارات، هذا المدلول النفسي هو كلام الله بالحقيقة، وهو قديم أولي قائم بذاته تعالى¹.

أما الكلام بالمفهوم القرآني فنجد أن الرمز ليس من جنس الكلام ويجوز أن يكون استثناء، ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمُهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية 46. أي يكلمهم كلام الأنبياء من غير تفاوت من حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويتنبأ فيها الأنبياء².

والكلام له مواضع، وحين ينحرف عنه يصبح عشوائيا كما جاء في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ سورة النساء، من الآية 46، فالمعنى إن كان له مواضع التي وضعها الله فيها، لكنهم أزالوه عنها دلالة على الافتراء على الله. وبغير وجه فهم .. يزيلونه عن مواضعه، فيجعلونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع. لأن كلمة الله دلالة على الصدق والعدل، أي كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد صدقا ووعدا، لا أحد يبدل شيئا من ذلك.

والكلام هو ما أنزل على الرسل من كتب ووحى، وقيل أن عيسى كلمة الله، فخصني بهذا الاسم لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمنى³.

قال: إن الكلام يجعل صاحبه يتبوأ مكانة رفيعة ومنزلة عالية، فلما خرج يوسف من السجن ودخل على الملك فسلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان أبائي وكان الملك يتكلم أكثر من لسان، قدمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ سورة يوسف، من الآية 4.54.

1. اللغة لدى الدارسين الغربيين:

أما المؤلفين الغربيين يميزون بين ثلاثة مفاهيم هي: langue. Langage. Parole ويبدو أن المؤلفين العرب يطلقون أحيانا عبارتي "اللغة العربية" ويقصدون بهما "اللسان العربي" والحقيقة أن هناك فرقا واضحا بين الكلام واللغة واللسان، فالكلام يطابق المصطلح الفرنسي parole واللغة تطابق le langage واللسان يطابق la langue⁵.

فعملية الكلام تتم على النحو التالي:

-التفكير العقلي أولا، والباحث اللغوي لا يقف طويلا عند عملية التكفير وتفسيرها بالتفصيل.

¹- الإمام الزمخشري، التفسير الكشاف، ج:1، ط:2 ض: 46.

²- المصدر نفسه، ص:133.

³- المصدر نفسه، ص: 64.

⁴- المصدر نفسه، ص:88.

⁵- توفيق محمد شاهين، علم اللغة العام، الناشر مكتبة وهبة، ط:1، 1980، ص:70.

-إصدار الكلام من جهاز النطق والموجات الصوتية الخارجة من فم المتكلم والواصلة إلى أذن السامع، والعمليات العضوية التي تقوم بها أجزاء الأذن بعد استقبالها للصوت، ثم ترجمة المخ للرسالة التي وصلته. والتصرف على مقتضاها حينما يكون الكلام مفهوما ومفيدا، فهذا يعني أنه لا بد من متكلم ومخاطب، وأشياء تجول في الفكر ونريد التحدث عنها، ورموز مثقف عليها، لها في الذهن صور ومعان معينة.¹

والصوت عنصر أساسي في عملية الكلام فهو كما يقول (الجاحظ): "هو آلة اللفظ" والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف.² فالكلام أصوات يتلفظ بها المتكلم ويسمعه المخاطب، وذلك أن كل مكانة تفترض وجود شخصين أحدهما يصدر الأصوات، والآخر يتلقى تلك الأصوات ويؤولها. فالكلام ينظر إليه على أنه ظاهرة صوتية من حيث انتشار الألفاظ في الهواء ووقوعها على حاسة السمع وإدراكنا وتعتمد هذه الدراسة على فيزياء الصوت.

وقد يستعمل لفظ الكلمة في اللفظة الواحدة ويراد بها الكلام الكثير الذي قد ارتبط بعضه ببعض كتسمية القصيدة بأكملها كلمة. ومنها يقال كلمة الشهادة، ويقال: "الكلمة الطيبة صدقة". ولما كان المجاز أولى من الاشتراك علمنا أن إطلاق لفظ الكلمة على المركب مجاز، وذلك لوجهين، الأول: إن المركب إنما يتركب من المفردات، فإطلاق لفظ الكلمة على الكلام المركب يكون إطلاقا لاسم الجزء على الكل. والثاني: أم الكلام الكثير إذا ارتبط بعضه ببعض حملت له وحدة فصار شيئا بالمفرد، فأطلق على الكلام الطويل لهذا السبب.³

العرب تفضل كلمة لسان عندما يكون الحديث عن اللغة العربية، لأن العربي خص لهجته بخف، بكلمة "لسان" هذه الكلمة المؤلفة من الحروف الرشيقة: "ل.س.ن." وأطلق على اللهجات السامية كلمة "لغة" و"لغا" "يلغو" وما يتضمن حرف العين من غموض وإبهام. وقد جاء في "لسان العرب" (لابن المنظور) أن اللسان هو جارحة الكلام، وقد يكن بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ، قال الأعشى:

إنني أتني لسان لا أسر بها *** من علو لا عجب منها ولا سخر
وقد جاء اللسان بمعنى الكلام، قال الحطيئة:

¹ - المرجع نفسه، ص: 72.

² - المجاحظ أبي عثمان بن بحر، البيان والتبيين، ج: 1، دار الفكر للجمع، 1986، ص: 79.

³ - المصدر نفسه، ص: 23.

ندمت على لسان فات مني *** فليت بأنه في جوف عكم¹

واللسان يذكر ويؤنث، والجمع ألسنة وألسن، وإن أردت باللسان اللغة أنثت، يقال: فلان يتكلم بلسان قومه، ويقال رجل لسن بين اللسن إذا كان ذا بيان وفصاحة، والإلسان إبلاغ الرسالة، وألسنه أبلغه، ولسنه أيضا كلمه، وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ذكر امرأة فقال: إذا دخلت عليك لستك، أي أخذتك بلسائها، يصفها بالسلطنة والبذاء، واللسن جودة اللسان وسلطته.²

واللسان هو على لغة من جعله مذكرا يجمع على ألسنة، وعلى من جعله مؤنثا يجمع على ألسن كذراع وأذرع، ولسان العرب لغتهم قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرُّنَّاهُ بِلسَانِكَ﴾ سورة مريم، من الآية 97. والمراد في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ سورة الشعراء، من الآية 84 ما يوحد به. وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ سورة القيامة، من الآية 16، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ سورة القيامة الآية 17، حيث أمر جبريل الرسول أن يلقي إليه قلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه بدراسة إلا أن يرسخ المعنى، لا تحرك لسانك بقراءة الوحي مادام جبريل يقرأ لتعجل به لتأخذه على عجلة لكي لا ينفلت منك، وإثباتا قرأته في لسانك.³

وجاء في قوله تعالى: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ سورة الشعراء، الآية 195، هذا القرآن أنزلناه إليك باللسان العربي الواضح الفصيح الكامل الشامل لتكون نبيا واضحا ظاهرا مقيما للحجة دليلا على المحجة قال رجل: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك، فقال: "حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني".⁴

فالنطق فضيلة عظيمة يدل عليها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ سورة الرحمن 3-4. ولم يقل وعلمه البيان، لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرا به. أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هي الحيوان الناطق، ومن هنا وقع اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان. وفي هذا يقول علي كرم الله وجهه: "ما لإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة"، والمعنى أنه لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهائم. وقالوا: "المرء بأصغريه قلبه ولسانه"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مخبوء تحت لسانه".⁵

¹- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، مجلد: 13 بد ط، ص: 368.

²- أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، الكليات، مرجع سابق، ص: 708.

³- الإمام الزمخشري، تفسير الكشاف، دار المصنف، ط: 2، 1988، ص: 186.

⁴- المصدر نفسه، ص: 205.

⁵- الرازي فخر الدين، مصدر سابق، ص: 46.

وسأل الله عز وجل موسى حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة على حجته والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ سورة طه، 27-28، وأنبأنا الله تعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، ونهنا بذلك على كل جاحد حين أخبرنا بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾¹ (الزخرف 52).

ومعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع في الروح، وقوله أيضاً: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ إشارة إلى تحصيل ذلك، وتسهيل ذلك التحصيل، وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية، فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البياني وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون إلا باللسان، ولهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾.

فما من موجود أم معدوم، خالق أو مخلوق، إلا واللسان يتناولوه ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كان ما يتناولوه الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذان لا تصل إلا إلى الأصوات والحروف... وكذا سائر الأعضاء، بخلاف اللسان فإنه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد، فله في الخير مجال رحب وله في الشر بحر سحب.

وببدو أن طبيعة اللسان العربي تبدو متصلة بمنشئه، ومنشأ اللسان عند الكثير من الدارسين متصل بالطبيعة، المتصلة بالطبع، وهذا يجعل منشأ اللسان العربي النفس، ونفس الإنسان متصلة بالمعنى الذي أرسلها نفخة في تراب آدم، وذلك يعني أن منشأ اللسان العربي الحي².

فالأفعال تبدو ذات طبيعة مزدوجة، فهي ذات طبيعة صوتية، وذلت خيال مرئي، فكل كلمة في اللغة لها صورتان في الطبيعة: صوتية ومرئية، أي سمعية وبصرية، ومثال ذلك "الماء" فصورة الماء الطبيعية الصوتية هي: صوت خريره، وصورته الطبيعية هي: الماء ذاته في مجراه، فاللسان العربي اشتقاقى البنیان ترجع معظم كلماته إلى صور صوتية مرئية مقتبسة من الطبيعة الخارجية تقليداً للأصوات الحاصلة فيها أو عن الطبيعة الإنسانية بياناً لمشاعرها³.

وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف، فمر أعرابي محرم أي فصيح لم يخالط الحضر فقال الأعرابي: اشتقاق الاسم من فعل المسمى، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال: ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل. والعجب، إلا تراها تمشي العرصنة خيلاء وتكبرا⁴.

¹ - الماحظ، مصدر سابق، ص: 08.

² - المصدر نفسه، ص: 110.

³ - د. خليل أحمد، دور اللسان في بناء الإنسان عند زكي الأرسوزي، دار السؤال للطباعة والنشر، ط: 1981، 2، ص: 100.

⁴ - د. عبد الحميد الشرقاني، رواية اللغة، دار المعارف، ط: 1، 1998، ص: 71.

فكافة كلمات اللسان العربي ترجع إلى صور صوتية بصرية مقتبسة من الطبيعة الخارجية تقليدا للأصوات الحاصلة فيه، فالعقل العربي يبني قواعد الضمائر من النفس. ونماها في إطار اجتماعي، لذلك جاءت دالة على النفس متفاعلة مع المجتمع.

فلسان آدم هو لسان المعنى متجليا في الوجود، وبذلك تكون نشأة اللسان معنوية لأنه كائن بين الأرض والسماء، إذ أن بدنه من الأديم وروحه منبثقة عن روح الإله، فالمعنى ينشئ اللسان، وتهيمن عليه حروف وكلمات وقواعد وأسلوب، وذلك يؤكد نشأة اللغة من المعنى¹.

فلسان هو النموذج الاجتماعي الذي استقرت عليه اللغة، أو هو صورة من صور السلوك بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من أبناء الأمة الواحدة، فلسان كل أمة يشتمل على عدة لغات، فاللسان العربي مثلا تضمن عددا من اللغات، فهناك لغة قريش، ولغة تميم، ولغة أهل الحجاز. فاللسان مفهومه أعم من اللغة ولا يستقر إلا بعد مضي أجيال، فهو يتأثر بالكلام واللغة ويؤثر فيهما، وكما أن النهر المتدفق يتلقى مياهه من مختلف الروافد فكذلك اللسان يتلقى رصيده اللغوي من الأفراد والجماعات².

وليس هناك من لساني لا يدين بشيء لـ (سوسير) F de Saussure في مجال اللسانيات. فكفاءة المتكلم اللغوية لا يمكن أنة تنفصل عن اللسان langue، والكلام parole، وهذه الاصطلاحات كغيرها من المصطلحات أصبحت متداولة عالميا، فالهدف الصحيح للعالم اللغوي هو اللسان، إلى درجة أن (دي سوسير) قد بالغ في واقعية اللسان خصوصا عندما يرى أن التغيرات في اللسان تنبثق من التغيرات التي يحدثها الأفراد في كلامهم، بينما نجده يعلن أن اللسان لا يخضع لقوة الفرد على التعبير³.

وفي هذا السياق بين اجتماعية اللسان وفردية الكلام، فالأول يتحدد باعتباره مجموعة من العادات اللسانية التي تسمح للفرد بالتواصل مع مجموعته اللسانية، فلا بد من وجود جماعة متكاملة لكي يوجد اللسان، فالطبيعة المجتمعية هي إحدى الخصائص الداخلية الناتجة عن عقد جماعي يفرض بصفة سلبية على كل من يرغب في التواصل، وانطلاقا من هذه الاجتماعية التي يضمها اللسان يقارن (دي سوسير) بينه وبين أنظمة اجتماعية أخرى، مثل أبجدية الصم-البكم-الكتابة-الطقوس الرمزية-أشكال الأدب-الإشارات العسكرية⁴.

وهذه المقارنة يقول عنها (دي سوسير): "لقد لاحظنا أن اللسان هو مؤسسة اجتماعية ولكنه يتميز بمجموعة من السمات عن المؤسسات الأخرى: السياسة والقانون... إلخ، ومن أجل فهم طبيعته الخاصة يجب أن ندخل نظاما جديدا من الوقائع. إن اللسان هو نسق من الأدلة يعبر عن أفكار، ومن هنا يمكن

¹ - د. خليل أحمد، مرجع أسبق، ص: 112.

² - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2، 1980، ص: 72.

³ - عمر أوكان، مدخل إلى دراسة النص والسلطة، فريقا الشرق، المغرب، ط 2، 1994، ص: 81.

⁴ - دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية، بد ط، 1986، ص: 33.

مقارنته بالكتابة، وبلغه الصم-البكم، والطقوس الرمزية بأشكال التأديب، وبالإشارات العسكرية... إلخ¹.

أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وهي مجموعة من القواعد التواصلية للممارسة ملكة اللسان، أما اللسان فهو النموذج الاجتماعي الذي استقرت عليه اللغة، فهو صورة من صور السلوك السوي بالنسبة للأغلبية من أبناء الأمة الواحدة².

إن (أندري مارتنيه) A. Martinet يستبعد التقابل بينهما قائلا: "أنا أستبعد التقابل بين اللسان والكلام، وإننا نواجه ظاهرة مدركة هي الكلام، إضافة إلى سلوك الكائنات الحية التي تتبادل الكلام، وهنا عنصر مدرك يجدر بنا الانطلاق بدءا منه... ليس ثمة اللسان والكلام، ثمة الكلام. ومن ثم العناصر التي لها ملاءمة للسان موضوع البحث، هذه العناصر التي تملك ملاءمة لا لا تمتلك ملاءمة للغة الإنسانية، كما إن لها ملاءمة للسان مخصص"³.

إن اللسان العربي إذا قورن باللسنة الأمم الأخرى، هو كائن حي ينمو من الداخل بالاشتقاق، بينما يكون التطور في اللغات الأخرى تطورا ميكانيكيا، فالعلاقة بين اللفظ والمعنى ليست علاقة اصطلاحية رمزية كما هو شأن اللغات الإنسانية. فاللسان العربي ذو بنيان عضوي تنمو به الكلمة عن المعنى وتوحي به حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة. مما يجعل صاحبه أكثر استعدادا من غيره لفهم الأخلاق والديانة⁴.

إن دراسة اللسان العربي يساعد على استجلاء حقيقة الأمة التاريخية وفيها يقول (الأرسوزي): "إن كل ما نفتقر إليه في بعثنا هو أن نبغ مستواهم في وضوح البصيرة وفي قوة الشكيمة وكيف السبيل إلى ذلك، إن لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا هي مستودع لتراثنا، فما لنا إلا أن نعود ونحيها عن وعي حتى نبغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة"⁵.

فاللسان العربي عند زكي الأرسوزي يقع بين المادة والطبيعة، وأن فقه اللسان يؤدي إلى محاولة التقاء الحياة بالمادة، وذلك بالارتقاء إلى أصول الكلمات المنطقية على الأصوات الطبيعية.

كما أنه يطلعنا من جهة على حقيقة المحل الأعلى الذي فاض منه المعنى على اللسان، وهكذا يبدو بالتقدم في اللسان العربي ذا معنيين: معنى تصبح فيه الأشياء أكثر فأكثر ملاءمة لمشيئة الإنسان، ومعنى تصير فيه المعاني أوضح، وليست العلاقة بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات علاقة سكونية كما

¹- أندري مارتنيه، وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة نادر السراج، المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط: 1، 1996، ص: 47.

²- المرجع نفسه، ص: 49.

³- المرجع نفسه، ص: 47.

⁴- زكي الأرسوزي، المؤلفات الكاملة، مجلد: 1، مطابع الإدارة السامية، دمشق، 1982، ج: 1، ص: 329.

⁵- المرجع نفسه، ص: 298.

هو الأمر في الكونيات، بل هي علاقة حركية تتسم بالتجارب والجدلية، "فالشرعية" صورتها الحسية "الشارع" أو الطريق المؤدي إلى المنهل. و"العدالة" وصورته الحسية "عدلي الفرس" أي الاتزان والنظام و"النية" وصورته الحسية "النواة" و"العقل" وصورته الحسية "العقال" الرباط... إلخ¹.

وبناء على هذا فإنه يستحيل الاتصال بين المعقول والمحسوس لولا اللسان، وإذا عدنا إلى التراث العربي لوجدنا أن مفهوم البرزخ عند المتصوفة يعني بالإضافة إلى أنه "الحائل بين سيئين" كونه خطأ فاصلا بين عالمين توجد فيه المحسوسات على هيئة صور مفرغة من موادها. كما تتشكل فيه المعقولات بالصور القابلة للإدراك حسيا، فالأفكار كالقمم والكلمات

تعبر عنها، وما اللغة إلا هذه الطبقة التي تشاهد فيها هذه القمم مع ما هو غني متنوع ومشترك، وإن لم تعبر اللغة عنها كاملة فهي على الاتصال².

وهنا تأتي مناسبة الأبنية للمعاني، وهنا يورد (ابن جني) مرويا عن الخليل بن أحمد يقول: "كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: "صر" وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: "صر صر". كما نقل (بن جني) عن (سيبويه) قوله في المصادر التي جاءت على "الفعالن" إنما تأتي للاضطراب والحركة نحو "النقران" و"الغليان" و"الغثيان" ويتبع بن جني أثر (الخليل) و(سيبويه) معقبا: «ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمة ما حذياه ومنها ما مثلاه، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية تأتي للتكرير نحو "الزعزعة" و"القلقلة" و"الصلصلة" و"القعقعة" و"الجرجرة"³.

خصّ (ابن جني) أول باب من أبواب كتابه "الخصائص" للفصل بين "الكلام" و"القول"، وبدأ من اللجوء إلى تعريفها حسب الأصول المنطقية السائدة في عصره، فقد ذكر أحوال تصاريهما واشتقاقتهما مع قلب حروفها، وبالتالي كان أول من أحدث هذا النوع من الاشتقاق وأطلق عليه "الاشتقاق الأكبر" تمييزا عن "الاشتقاق الأصغر" الذي بواسطته يمكن استخراج كل الحالات الممكنة للكلمات الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية⁴.

خاتمة:

وأخيرا، يمكن القول أن اللغة هي قوام التعبير الناطق بين جميع المتكلمين بها، فإن لم نتعرف منها على حقائق أحوالهم فما هي بأداة وافية بوسائل التعبير.

واللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية أو الغربية، فلا يعرف علماء اللغة، لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتها وألفاظها، كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربي

¹- المرجع نفسه، ص: 281.

²- المرجع نفسه، ص: 248.

³- ابن جني، الخصائص، ج: 2، مصدر أسبق، ص: 152.

⁴- المعرفة، مجلة ثقافية، تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، العدد: 187، ديسمبر 1986.

من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع، وأسلوب المجاز، فإذا التبس علينا أمر كلمة من الكلمات، فلم تعلم في ظاهر الأمر أي من ألفاظ العرب الأصلية أم من الدخيل عليها، فلدينا هذا المقياس نقيس به دلالة الكلمة ونردها إلى حياة العرب. ومن الجائز أن يمتد القياس إلى أغراض أخرى كالمقارنة بين الكلمات اللغات تحريا لأصولها. واللغة العربية في مقدمتها. فإنه بحث يجمع بين أغراض التاريخ وأغراض البيان، وأغراض الدراسات النفسية والاجتماعية.